مجلة المجتمع

العدد : ١٨٧ الموافق في شوال ١٤١٧ هجري ٣ / ١٩٩٧ ميلادي

وجهة نظر: الحركة الإسلامية ... وتحديات المرحلة	بقلم : هيثم مسعود

في العقود الماضية كان مشروع التغيير الإسلامي يعيش حالة من الدفاع عن الذات ، ويمكن القول بأن الحركة الإسلامية المعاصرة كانت تمر بمرحلة إزالة « الشبهات عن الإسلام » والدفاع عن الفكر الإسلامي ، وفي المقابل كانت القوى المعادية تهدف إلى قتل التوجه الإسلامي في مهده ، والحؤول دون خروجه إلى النور ، وانتشاره في الآفاق ؛ إما عن طريق السحق والمواجهة حيناً ، أو عن طريق الاختراق والاحتواء حيناً آخر ، ولكن { **يريدون ليطفئوا نورَ الله بأفواههم والله متمُّ نوره ولو كره الكافرون** } فها هو الإسلام يخرج من ليل المحن قوياً شامخاً ، وها هو المشروع التغييري الإسلامي يخرج من تلك الشدائد أصلب عوداً وأشد مراساً ، وذلك بفضل الله سبحانه ، ثم بفضل الدعاة الصابرين ، والمفكرين الذائدين عن حماه.

لقد أصبح بعد تلك المحن من غير الممكن تجاوز المشروع الإسلامي عند استعراض خارطة الفكر والسياسة في عالمنا العربي والإسلامي ، بل إنه في أواخر الثمانينات وبداية التسعينات بدأ يتحول المشروع الإسلامي ، بسبب عوامل خارجية وذاتية ، إلى مشروع جماهيري على نطاق الأمة والعالم بأسره ، حيث تحول من مشروع تنظيمات تواجه وتحارب هنا وهناك ، إلى تيار جماهيري عريض تتعاطف معه قطاعات واسعة من جماهير الأمة ، بل وربما تدافع عنه وتحامي أحياناً.

وللتدليل على هذا يمكننا أن نستشهد بالانتفاضة الشعبية في فلسطين التي اندلعت نهاية عام ١٩٨٧م ، وفوز التيار الإسلامي في عدة انتخابات بلدية وتشريعية ونقابية ، كما حدث في الجزائر واليمن وتركيا ومصر. بل إن الأمور تجاوزت هذا الحد ، فما كان حلماً بعيد المنال في الماضي أصبح اليوم واقعاً قائماً ، وذلك يتجسد في صعود الإسلاميين إلى سدة القرار والحكم ، أو المشاركة في صنع القرار السياسي في عدة بلدان ، وماالتجربة الإسلامية في السودان واليمن وتركيا إلا مثال على ذلك.

إن هذا التحول في المشروع الإسلامي يدلنا على أمرين هامين :

الأول : إن شعبية المشروع الإسلامي أصبحت تحتم على حركاته ودعاته مزيداً من الانفتاح على جماهير الأمة ، ومشاركتها همومها وقضاياها الكبرى والصغرى ، بل إشراكها في هموم الحركة الإسلامية ، لأن هذا هو السبيل الوحيد لكسب ثقتها ، ولبناء المصداقية عندها ، وبالتالي السبيل الوحيد لإنتصار المشروع الإسلامي في نهاية الأمر.

الثاني : إن مشروع التغيير الإسلامي بدأ ينتقل في هذه المرحلة من دائرة ردة الفعل إلى دائرة الفعل نفسه ، مما يستوجب في كثير من الأحيان من الآخرين أن يكونوا هم أنفسهم في دائرة ردة الفعل للتعامل معه ، فمثلاً في الوقت الذي طرح فيه مشروع « السوق شرق الأوسطية » و « الشرق الأوسط الجديد » من قبل الدوائر الصهيونية والأمريكية ، طرح مشروع « السوق الإسلامية » و « المجموعة الاقتصادية الإسلامية » من قبل نجم الدين أربكان زعيم حزب الرفاه الإسلامي ، الذي أربك بدوره في رئاسة الوزراء التركية كثيراً من السياسات الصهيونية والأمريكية ، التي كان من المفترض أن تمضي في المنطقة ، فيمكن للمرء تصور ذلك كفعل في مقابل فعل آخر ، هدفه صنع حقائق تاريخية على الأرض للأجيال القادمة ، متجاهلاً عملية صنع الحقائق التاريخية على الأرض من قبل الصهاينة والأمريكان.

وفي المحصلة فإن كلا الأمرين يستوجب من الحركة الإسلامية أن تتحرك ضمن محورين متوازيين ، محور البناء والدعوة ومعايشة قضايا الأمة وهمومها ، ومحور صنع الأحداث لا العيش على هامشها أو الاكتفاء بمجرد تحديد الموقف تجاهها أو التعليق عليها.

وهنا ينبغي الالتفات إلى قضية غاية في الأهمية وهي أنه ليس مجرد الوصول إلى السلطة يعتبر نهاية طريق التغيير ، بل هو بداية لطرق أخرى تحوي ربما نوعاً أشد خطورة من التحديات والمخاطر على المشروع الإسلامي ، وهذا ما نراه جلياً في تجربتي السودان وتركيا. إن هذه التحولات التي شهدتها الحركة الإسلامية من خلال مشروعها التغييري تزامنت مع وجود تحولات ومستجدات أخرى على الصعيد الدولي ، أبرزها سقوط المعسكر الشيوعي وانتهاء الحرب الباردة ، وبالتالي سقوط أيديولوجيات اليسار في العالم العربي والإسلامي ، ونشوء حالة من الفراغ الفكري والنفسي ، حلت مكان تيارات اليسار ، مما يسهل عملية الطرح للفكر الإسلامي الناضج على صعيد الأمة ومثقفيها. هذا من ناحية أما من الناحية الأخرى فقد نشأ على المستوى الدولي « وضع تنافس جديد » في السياسات الدولية التي مازال يقف على رأسها الولايات المتحدة الأمريكية ، وهذا يعني وجود حيز للمناورة لدى الدول ولدى المشروع الإسلامي إذا ما أحسن الاستفادة من هذا الوضع. وفي مفصل هام من مفاصل التحولات الدولية هذه أتت حرب الخليج الثانية ،كي تسرع من عملية الوعي الإسلامي والجماهيري تجاه الأخطار المحدقة بالأمة ، وكي تسقط في الوقت ذاته الكثير من الأقنعة ، وتعري الكثير من الحقائق في عالمنا العربي والإسلامي.

إن هذه التحولات العالمية والذاتية في المشروع الإسلامي تعني بشكل أو بآخر أن أرضية الصراع التي كانت تقف عليها الحركة الإسلامية قد تبدلت ، وأن الجو النفسي والفكري والسياسي الذي كان يحيط بالصراع قد تغير أيضاً وعلى كلٍ من المستويات المحلية والإقليمية والدولية. هذا مما يستوجب - أكثر من أي وقت مضى - من الحركة الإسلامية أن تعيد النظر في برامجها ومناهجها وأساليب طرحها ، التي كانت متبعة في العقود الماضية ، حيث يستجد للناس من الفتوى بقدر ما يستجد لهم من الأحوال ،كما قال سلفنا في الماضي.

لقد كان « الاحتواء » خطراً يحيق بالحركة الإسلامية ، تماماً مثل خطر التصفية والسحق ، أما اليوم فقد انقلب سحر الساحر عليه كما يقال ، وأصبح سلاح الاحتواء مشرعاً في الاتجاه الآخر ، أي أصبح الوضع الجديد في العالم العربي والإسلامي ، بشقيه الرسمي والشعبي ، أصبح عرضة للاحتواء التدريجي من قبل الفكرة الإسلامية والمشروع الإسلامي التغييري... أي إن احتواء المرحلة وإفرازاتها الجديدة في عالمنا أصبح واجباً فكرياً وضرورة واقعية بالنسبة للحركة الإسلامية ، وهي تستعد لدخول دورة جديدة من الزمان.

ولكن عند حديثنا عن الإنجازات وآفاق حركة المستقبل ينبغي أن لا نغمض أعيننا عن مواطن الفشل والإخفاق ، حيث شهد المشروع الإسلامي إخفاقات ومحطات مؤلمة في كل من الجزائر وأفغانستان. هذه الإخفاقات التي تشير إلى وجود « أزمة عميقة » على صعيد التربية والأخلاق في الساحة الإسلامية ، أزمة عميقة ظهرت على شكل ردات فعل لا علاقة لها بالشرع وأحكامه وأخلاقه تجاه واقع ربما أشد تطرفاً في بعده عن الإسلام ، ومحاربته لفكره ومشروعه.

لقد دقت هذه الأزمة ناقوس الخطر في الساحة الإسلامية ، مما يعني وجوب معالجتها معالجة منهجية قبل أن يأتي وقت لا يسمح فيه بتدارك هذه الأمراض ، فندفع الثمن غالياً من مستقبل دعوتنا وأجيالنا. فالطريق إلى دولة الإسلام لا يُعبّد بجماجم الأبرياء ، ولا يضاء بسفك الدماء بغير وجه حق والاعتداء على الحرمات.

إننا عند تقييمنا للصحوة والحركة الإسلامية في نهاية المطاف ، ينبغي علينا أن نخرج من نطاق التفاصيل والجزئيات ، لنرسم خطاً يجمع في محصلته الإنجازات والإخفاقات ، فيضع لنا مؤشراً عاماً يقول بأن المشروع الإسلامي والحركة الإسلامية في نمو وتقدم مستمر ، رغم مواطن الخلل والأمراض ، وأنه ينبغي أن نسير وفق قاعدة التفاؤل الحذر ، التي من خلالها نأخذ الإيجابيات

فنطورها ، والسلبيات فنتخلص منها.

وهنا أستحضر مقولة تصف حال الأمة وحال الحركة الإسلامية على حدّ سواء : « لقد كنا نضرب في الماضي ونحن في حالة تقهقر وتراجع استراتيجي ، أما اليوم فنضرب وربما بشدة ونحن نعيش حالة تقدم ونمو استراتيجي.